الفصل الخامس والأربعون

وصف الموكب الثانى لقطع النيل

عندما تسقط النقطة فى يوم ( )[1] توت من شهر يوليو يُذكِّر الباشا كتخدا چاويشيته ورئيس فرقة المتفرقة والترجمان أغا، وأغوات الفرق السبع وسائر رجال الأعمال قائلا: إننا بإذن الله سوف نقطع النيل بعد أربعة وثمانين يوما فلتعدوا العدة لذلك يا أعيان مصر حسب القانون القديم، وليكن احتفالا عظيما بهيجا.

وكان ذلك جديرا بأن يدخل السرور فى نفوس أهل مصر جميعا. وجرت العادة بأن يستأجروا المنازل فى مصر العتيقة بمائة قرش أو مائتين أو خمسمائة. كما يستأجرون مقدَّما عدة آلاف من السفن الضخمة من بولاق ورشيد وجرجا بمائة أو مائتى قرش.

ويشرع الناس جميعا يزينون سفنهم وبيوتهم بالقناديل، ويزخرفون مجالسهم وكواتهم، ويطلون جدرانهم وأبوابهم بالجص الأبيض، وبذلك يجعلون من مصر العتيقة أم الدنيا عروسا فى ليلة عرسها.

ويجهز الأمناء والملتزمون والكاشفون وأمراء اللواء وبكوات مصر وجميع الأعيان - طبق ما جرى من عادات - هداياهم التى سيقدمونا إلى الباشا.

ويعهد إلى أحد أغوات الباشا بتطهير موضع قطع النيل ويتسلم عشرة أكياس للإنفاق على خمسة أو عشرة آلاف أجير وثيرانهم طيلة خمسين يوما حتى يتم تطهير الخليج، ويدفعون للأغا الذى يقوم بهذه المهمة عشرة آلاف باره، كما يتحصل له كيسان من القرى وأصحاب البيوت جميعا، ويتحصل لكتخدا الباشا كيسان، وللباشا .

وفى عهد الملك «خصليم» أحد ملوك القبط كانت مياه هذا الخليج تجرى صيفا وشتاء، وكان المصريون جميعا يروون ظمأهم منها، وكانت أرضية هذا الخليج مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام، وعلى مر الأيام غطاها الطين والغبار، وأصبحت تجف ستة أشهر، ثم تجرى فيها المياه ستة أشهر أخرى بعد قطع النيل.

(١) بياض فى الأصل.

ويمنح الأغا القائم على تطهير هذا الخليج عشرة آلاف بارة، وعند إنجاز مهمته يقيد ذلك فى سجلات محكمة باب النصر، ويتسلم الأغا المذكور الحجة الشرعية فيحملها إلى الباشا.

ثم يلتفت إلى إعداد وتنظيم مواكب «قطع النيل». وفى تلك الأثناء يبلغ منسوب النيل ستة عشر ذراعا أو سبعة عشر ذراعا.

وفى الموضع الذى يقطع النيل فيه يقع جسر يسمى «جسر أبى المنجا»، ولكى لا يجرى النيل من تحت هذا الجسر يعهد إلى الأغا القائم على تطهير الخليج بإقامة سد من التراب أسفل هذا الجسر، ويجهز فوق هذا السد الترابى قارب عظيم مزين لموباشى المدينة، ويكوم الأغا المحتسب فى هذا المكان ألفى رأس من السكر، وألفى قطعة من الحلوى، وعدة آلاف الأرطال من الفاكهة، وسبعين أو ثمانين حمل جمل من الخبز الأبيض الفاخر وصنوف من المأكولات والمشروبات علمها عند ربى. ويجهز الأغا المحتسب كل ذلك من صلب مال الباشا.

ويقوم الصوباشى فى ستمائة أو أكثر من رجاله بحراسة هذه المأكولات والمشروبات. ومن موضع قطع النيل إلى بولاق مسيرة ساعة وتجاه هذه المسافة جزيرة الروضة تقطع فى ساعة كذلك، وعلى هذين الجانبين على ساحل النيل لا وجود لمكان متروك.

وتغص هاتان الضفتان بالخيام والسرادقات والمظلات والمطابخ ومخازن الطعام، وهاتان الضفتان كأنهما خضم من البشر، وهم يحجزون أماكنهم قبل قطع النيل بخمسة أو ستة أيام.

وفى سبتية مدينة بولاق تزين سفن كتخدا الباشا وسفن رئيس الديوان و(شهر حواله) وكتخدا البوابين وأغا الرسالة وأمين الجمرك، وأمين الأنبار وناظرها، وقوارب عشرين من أمراء مصر وقوارب أغوات الأوجاقات السبع، وقوارب أمراء الجراكسة، وقوارب قاضى العسكر ونقيب الأشراف والروزنامجى والدفتردار والقبودان. والحاصل أن آلافًا مؤلفة من سفن وقوارب أعيان مصر وأشرافها تزين بأجمل زينة من ذهب وحرير كما تزين بالأعلام المزركشة ذوات الألوان بحيث لا يخلو قارب من زينة فى هذه المناسبة،

كما تـزين جميـع هذه القوارب فى داخـلها وخارجـها بأنواع الأسلـحة وكأنهـا هيأت للحرب، وتزدحم هذه السفن المزينة على صفحة ماء النيل من قصر السبتية حتى أثر قدم النبى مرورا ببولاق وقصر العينى ومصر القديمة بمسيرة ثلاث ساعات فتصبح صفحة ماء النيل وكـأنها بستان سفـن من حمر الأزهار، وتتقـارب هذه السفن بحيـث يمكن لأى شخص أن يـنتقل مـن قاربه إلى القـارب المواجه له، فالـقوارب تزدحم إلـى هذا الحد البعيد.

ويعلم الباشا أن أهل مصر جميعا على أهبة الاستعداد لقطع النيل، وتبدأ المواكب فى التحرك.

وصف موكب قطع النيل

ويدخل هذا الموكب مصر كدخول موكب الباشا الذى سبق الحديث عنه، غير أن هذا الموكب يضم العلماء والصلحاء والأشراف والطواشية.

وقبل تحـرك الموكب بيـومين تغلـق الحوانيت ويـصطف أصحابـها من أعيـان مصر وأشرافها ورجالـها ونساؤها وشيوخهـا وشبابها على الطـريق من القطعة الداخـلية إلى بولاق بمسيرة ساعتين وكأنهم بحر من البشر فى انتظار مقدم الباشا.

ويتقـدم الصوباشـى الموكب فى مائـتين من رجـاله يحملـون العصى، وعـشرة من الجلادين لتمهيد الـطريق، ويتجاوزون المزدحمين ويمر خلفـهم أفواج وأفواج من الأئمة والخطباء يتلوهم شيوخ ثلاثمائة وستين طريقة، وهم يقرعون الطبول ويبتهلون.

وبعدهـم يمر عدة آلاف مـن المشايخ الـكرام ثم أفواج وأفـواج من علمـاء المذاهب الأربعة وهم فى أبهى حلة.

ثم يعبر بعدهم رجال الدين الذين يعرف الواحد منهم «بالمولا» والبالغ عددهم مائتين وستين وهم يتقاضون خمسمائة أقجة لكل منهم إعانة من المولوية. وهم يمرون وعليهم ثياب من حرير مـتحازين، ثم يمر شيوخ الإفتاء مـن الشافعية والمالكية والحنـبلية وشيخ الإسلام الإمام الأعظم «مصطـفى أفندى البولوى» مع قاضى العسـكر وبعدهم السادات الكرام وعددهم فـى مصر ستة وأربعون ألفا، وهم عـلى خيولهم المطهمـة، وفى نهاية

صفوفهم يجئ نقيب الأشراف برهان الدين أفندى حاملا علم النبى ﷺ وهو يلوح بالسلام فى أدب ووقار.

ثم موكب الشاويشية وعلى رءوسهم المجوزات يمرون على جياد بيض متوازية وعليهم حمر السراويل، وعلى أيديهم شهب الصقور. وبعدهم موكب الكوكليان أى المطوعة يحملون أعلام فرقتهم بجيادهم المتحازية يقرعون الطبول، وعليهم حمر السراويل.

ثم موكب التوفنكجيان أى حملة البنادق، وهم كذلك يحملون أعلامهم وعليهم حمر السراويل، ويركبون خيولهم متحازين ويقرع رؤساؤهم الطبول وقد بسطوا أعلامهم ولبسوا قلانسهم.

ويتولهم موكب مشاة المتفرقة، وقد لبسوا فرو السمور ويمضون فى صحبة رؤسائهم فى جماعات تتألف من خمسة أو عشرة قارعين الطبول.

ثم موكب الجراكسة وهم كذلك يحملون أعلامهم الحمر وفى أثرهم صبيانهم مثنى مثنى يمرون من رؤسائهم قارعين الطبول. ثم يمر موكب بكوات الجراكسة وهم أربعون أو خمسون فى عظمة وأبهة وكأنهم أمراء مصر، ولا يحملون طبولا.

ثم موكب العزب، وهم خمسة آلاف من الجند المشاة أما فى موكب قطع النيل هذا يمر منهم عشرة آلاف من فتيان طائفة، «الدالیان» مثنى مثنى وفى خصورهم السيوف. ثم يأتى بعدهم موكب الإنكشارية وهم ثمانية آلاف أما فى ذلك اليوم فيمر منهم عشرون ألفا يحملون البنادق، وعلى رءوسهم قلانس من جلد النمر، ثم موكب أغوات الباشا ويتقدم موكبهم مائتا شاب مثنى مثنى يمتطون صهوة جيادهم حاملين أسلحتهم ويتلوهم موكب جند الكوكليان أى المطوعة وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس من جلد النمر والتيجان، وخلفهم موكب الدلاة وهم يلبسون جلد النمر وعلى روءسهم القلانس وتيجان فرو النمور المزدانة بريش الصقور، وبعد ذلك يمر موكب المتهرخانة وفى أيديهم الحراب، ثم موكب الجاشنكيران وهم يمرون على صهوة جيادهم حاملين أعلام السباهية، ثم موكب «طشره كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام

وهؤلاء كذلك يمرون رافعين أعلامهم، ثم موكب غلمان صراجى القصر، وهم كذلك مدججون بالسلاح يركبون جيادهم المطهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة، وبعد ذلك موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام، وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا وهم يمرون وعلى رءوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام، إنهم أغوات كمل، ثم موكب رئيس البوابين وعليهم كذلك قباء السمور، وفى أثرهم عشرون أو ثلاثون يحملون الحراب ورءوس النمور.

موكب أمراء مصر

وهؤلاء جيمعا يلبسون قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم المسماة «بالبريشانى» وأمامهم، ويتقدمهم أربعة من شطارهم وعليهم بيض العمائم وحرير الخلع، وفى أيديهم الطير، وبجانب البكوات أربعون أو خمسون من قواسيهم، وخلفهم مائة أو مائة وخمسون من أغوات القصور فى ثيابهم المزركشة وكل منهم مدجج بالسلاح.

وصف قطع النيل

وفى هذا الموضع احتشد السادات والشيوخ وأصحاب الحاجات وبسطوا أكف الضراعة ودعوا الله ومسحو وجوههم بأيديهم. وفى ( )[1] من شهر يوليو أول توت ركب الصوباشى قاربه الذى أعد فوق السد الترابى الواقع أمام فم الخليج، وفى التو قام عدة آلاف من المصريين - وقد تجردوا من ثيابهم- بهدم السد الترابى، فانساب النيل الدفين كالبحر الخضم بعد أن وجد له طريقا، وعند مرور مائه من داخل الخليج صدر منه صوت كهزيم الرعد وعندئذ ارتفعت أصوات المشايخ بقراءة الفاتحة، ثم أعقب ذلك إطلاق البنادق والمدافع من جميع القوارب فارتفعت الضوضاء والضجيج، ومضى الصوباشى بقاربه، ودخل مصر وكأنه السهم المنطلق من قوسه، ونحر مائتى خروف وخمسين جملا هى التى أعدها المحتسب من قبل على ضفة النيل، فتخاطفها المصريون صائحين، وقام المحتسب ووكيل خرج الباشا بطرح ما سبق ذكره من ألفى رأس سكر

(١) بياض فى الأصل.

وألف صندوق من الحلوى وآلاف الأرطال من الفاكهة، وثمانين جمل بعير من الخبز وخمسين قنطارا من البقسماط فى مياه النيل.

إن هذا والعظمة لله مشهد من مشاهد يوم الحشر. وقام عدة آلاف من المصريين بطرح أنفسهم فى النيل وراء هذه المأكولات فارتطموا ببعضهم البعض بفعل أمواج النيل، ولم يضع شئ مما طرح فى النيل وأخرجوه كله ناحية ساحل النيل، ولله الحمد لم يلحق الأذى بأحد منهم.

وفى ذلك اليوم رأيت الكثير من العراة وخُيِّل إلىَّ أن إسرافيل قد نفخ فى الصور، وخرجوا من قبورهم.

وإن إلقاء مثل هذه النعم والأطعمة فى النيل فى يوم قطع النيل هذا يذكرنا بطرح فتاة فى النيل فى عهد الجاهلية.

وقطع النيل وجرت مياهه من هذا الخليج حتى وصلت وسط القاهرة، وروت ولايات قليوب والمنصورة والشرقية، وزرع الرعايا والبرايا وعم الخير والسلام.

وما يسمى قطع النيل فى مصر يجرى على هذا النحو، وهذا ما لا وجود له فى أى بلد على وجه الأرض. إنه مشهد يشتاق إلى رؤيته الملوك إنه مذكور فى جميع التواريخ.

وفى هذا الاحتفال شاهد الباشا هذه العجائب والغرائب، وخلع خلعا فاخرة على الأغا الذى قام بتطهير الخليج، وأمين الساقية والصوباشى والمحتسب أغا، ووكيل خرجه وأمر برفع مرساة قاربه، وعبر عن امتنانه، وألقى السلم على جانبيه حتى رست سفينته عند قصر أم القياس، وخرج مع جميع الجند والأعيان وأمراء مصر خارج السفينة وأدوا صلاة الظهر وسجدوا سجدة الشكر لقطع النيل، وأكثر الجميع من الحمد والثناء، ثم ضيف الباشا جميع أعيان مصر ومد سماطا عظيما يعجز عنه الوصف وهنا دعى أغا الإنكشارية الباشا إلى وليمة عند أثر قدم النبى ﷺ، ولبى الباشا الدعوة ثم أذن الباشا بالإنصراف لجميع أعضاء الديوان والعلماء والأشراف بعد أن فرغوا من تناول الطعام وعاد كل إلى إدارته.

وفى تلك الليلة نعم الباشا بالراحة والاستجمام فى قصر أم القياس.

وازدانت ألف سفينة فى النيل عند مصر القديمة بما لا يحصى كثرة من القناديل التى بددت ظلمة الليل وأصبح نورا قائما فى الظهيرة، وقام وكيل خرج الباشا بتزيين قصر أم القياس بالقناديل فأصبح وكأنه كمصباح قصر الجنان.

ونفخ فى المزامير وقرعت الطبول فى كل الأرجاء إلى مطلع الفجر وعمت الضوضاء والضجيج جميع مناحى القاهرة. وفى كل ساعة كانت تطلق مئات الآلاف من طلقات المدافع والبنادق وغنت الأرض والسماء وتحولت جميع البيوت فى القاهرة وجميع القوارب والسرادقات والخيام إلى مجالس أنس يغنى فيها المطربون ويعزف فيها العازفون وكأنها مجالس السلطان حسين بيقرا. وعمت البهجة والمتعة والصفاء كل الأرجاء.

وصف القائمين بالألعاب النارية المهرة

وصلت طائفة اللاعبين بالقذائف النارية (الفشنك) أى أتباع ابن سينا بالقوارب إلى قصر أم القياس حيث مجلس الباشا، وقدموا فصلا من الألعاب النارية ووصلت قذائفهم إلى عنان السماء، وأثناء هبوط هذه القذائف من السماء كانت تنبثق منها عدة مئات القناديل وكأنها الشهب فتنير الأرض.

وثمة نوع من القذائف يسمى «صراخى» وهذا النوع يتكون من ثلاث أنابيب وينطلق إلى السماء على ثلاث دفعات، ففى البداية تنطلق قذيفة تحمل أوقيتين من البارود فتبدوا وكأنها نجم صغير ويتصل بهذه القذيفة قذيفة أخرى فتشتعل من نار القذيفة الأولى وتسقط القذيفة الأولى على الأرض بينما تتابع القذيفة الثانية انطلاقها إلى عنان السماء.

وعندما توشك على الإنتهاء تشتعل القذيفة الثالثة وتسقط القذيفة الثانية على الأرض وتظل القذيفة الثالثة مشتعلة وكأنها شجرة بلوط تتمزق قطعا قطعا، فتقول الملائكة جميعا اللهم اكفنا شر الإنس ويستعيذون بالله.

إنها صناعة عجيبة وغريبة. وثمة نوع آخر من القذائف النارية يصعد إلى عنان السماء وينبثق منها فى الجو أربعون قذيفة أو أكثر، وقد انطلقت قذائف من هذا النوع فى الجو وهبطت إلى الأرض منها أربعون أو خمسون كأنها غضب من الله، وأحرقت ما صادفته وشتت حشود الناس.

وأطلقت القذائف النارية من أنواع وألوان شتى فى حضور الباشا وبمرأى ومسمع من المزدحمين من الناس وكأنهم الخضم، واستمر ذلك حتى مطلع الفجر، وكانت بعض القذائف التى أطلقت تغوص فى جوف النيل سبع أو ثمان مرات ثم تخرج من موضع آخر، وتسبح فى ماء النيل كالغواصين ثم تظهر ثم تغوص ثانية، وأطلقوا قذائفا من قلاع من ورق وكأن حرب دائرة الرحى، وأظهروا صورا للقساوسة واليهود والفرنجة والقزلباش وكأنهم يتقاتلون، كما أظهروا أشكالا للخيول والحُمُر والخنازير والجن والشياطين، ثم جاءوا بحُمُر وكلاب وعلقوا فيها القذائف وأضرموا فى تلك القذائف النار فانطلقت هذه الحيوانات بين الناس الذين قدموا لمشاهدة العروض فاختلط حابلهم بنابلهم وأصبح مشهدا مثيرا للضحك.

وجميع أنواع الألعاب النارية الخاصة بالفرنجة صنعها مهرة الصناع المصريين وعرضوا عجائبها بمناسبة الاحتفال بقطع النيل.

وبإطلاق هذه القذائف أصبح الليل المظلم نهارا منيرا، وتحولت الليالى أيام عيد وابتهج أهل مصر كبارا وصغارا سبعة أيام بلياليها فى مصر القديمة، واستأجر بعض الناس جواسقا على ساحل النيل نظير مئات القروش فى اليوم الواحد وأطلق بعضهم القذائف عمدا على المنازل فشتتوا أهلها.

وجملة القول أن الفرنجة وإن كانوا اخترعوا الألعاب النارية فإن المصريين قد أتقنوها إتقانا يبعث على الإعجاب وهم لا نظير لهم فى هذا المجال فى أرجاء الأرض. ولم أشاهد فى بلد آخر غير مصر هذه الألعاب النارية وفى مصر يعرضونها ليل نهار، ونارها مثل نار النمرود وأطلقت قذائف بمائة ألف قرش.

وأطلقت آلاف القذائف من مئات السفن والقوارب الموجودة فى النيل، ويبلغ ثمن كل قذيفة خمسمائة قرش أو أكثر، ومن المؤكد أنه ينفق على هذه الألعاب النارية مئات الآلاف من القروش.

ومرت جميع السفن أمام الباشا وكأن حربا ضروسا بينها، وقد زين البكوات جوانب قواربهم بكل ما هو نفيس وأطلقوا المدافع والبنادق وعزفت موسيقاهم العسكرية وأدوا

التحية للباشا أثناء مرورهم أمامه، وكانت السفن تمضى فى إتجاه الجيزة وكان الباشا يتأملها ليتبين أيهم أكثر زينة. وحتى مطلع الفجر كانت تطلق القذائف فى ضجيج وصخب فعمت البهجة كبهجة الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى أرسل الباشا مئتين من أغواته يمضى كل واحد منهم إلى بك من البكوات وأغوات الأوجاقات السبعة وكبار رجال الدولة لدعوتهم إلى وليمة يقيمها الباشا وكان يوزع على كل أغا قادم عليه قماشا من صوف. وقدم أم القياس القاضى عسكر ونقيب الأشراف وشيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة والحاصل أن جميع كبار العلماء والصلحاء والمشايخ والأئمة والخطباء وأغوات الأوجاقات السبعة وجميع أعضاء الديوان والمشاهير، أقيمت لهم مأدبة عظيمة يقال إنها تكلفت مائة كيس، ودامت هذه المأدبة ثلاث ساعات بالتمام.

وبعد الفراغ من تناول الطعام قدم الشراب وماء الورد والبخور، وخلع الباشا خلعا على أصحاب المناصب حسب رتبهم وكان يتم لهم التثبيت فى وظائفهم، وغيرهم كان يسند إليه الكشوفيات.

ولأن قطع النيل هو رأس السنة منح الباشا جند الأوجاقات السبعة المشتركين فى موكبه خمسة أكياس مصرية. وقضى الباشا تلك الليلة فى قصر أم القياس كذلك. وبمناسبة رأس السنة أنعم الباشا بمنصب «بنشر أغا» على جميع الأغوات وخلع عليهم كذلك فاخر الخلع.

وفى هذا اليوم أقام كتخدا الباشا المأدبة ودعى إليها رؤساء كتاب السجلات، وما أن فرغوا من تناول الطعام حتى خلع الباشا على الكتخدا خلعة من فرو السمور وقام الكتخدا بتحصيل مال الكشوفية للباشا، وفى تلك الليلة من ليالى أم القياس زينت جميع القوارب والمنازل بالقناديل وهزت أصوات المدافع والبنادق الأرض والسماء هزا.

وفى صباح اليوم التالى أقام الدفتردار مأدبة إكراما لوزير مصر فى حديقة كنعان بك بجزيرة الروضة وكانت هذه المأدبة مأدبة عظيمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام أهدى الدفتردار الباشا عشرة أكياس وعشرة من الطواعية وجوادا مطهما مزينا بالجواهر كما أهدى جوادا وبعض الهدايا لكل من أصحاب المناصب الرفيعة. وبعد أن خلع الباشا

خلعة السمور على الدفتردار ركب الباشا جواده السريع وفى الطريق انضم إلى ركابه أمير الحج ودعى أمير الحج الباشا إلى مأدبة فى قصر على بك بحدائق الروضة، وكان بها كثرة من المغنيين والعازفين والحواة والمصارعين واللاعبين بالألعاب النارية واللاعبين بالعرائس واللاعبين بالطيور واللاعبين بالعمد، وجملة القول أن مائة وسبعين من هؤلاء اللاعبين قدموا عروضهم فى تلك الضيافة ونال كل منهم نصيبه من منحة الوزير.

ثم خلع الباشا خلعة من فرو السمور على أمير الحج وامتطى الباشا صهوة جواده.

وقبل وقت الغروب كان كل بك ينوب الباشا قد أقام وليمة للباشا كوليمة أمير الحج وأعطى كل واحد منهم الباشا مثلما منحه أمير الحج من هدايا، وهى خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجواد مطهم مزين بالجواهر وبعض التحف، كما منح كل بك منهم أحد عشر من أصحاب المراتب جوادا لكل منهم ثم تلقى هؤلاء البكوات النواب خلعة من فرو السمور لكل منهم من الباشا، ثم عاد الباشا إلى أم القياس ليلا.

وفى تلك الليلة أقيم حفل ساهر استمر حتى مطلع الفجر. وفى الصباح قدم البك قائد الأمراء الكرام ورئيس تجارهم، وأقام مأدبة عظيمة للباشا فى إحدى حدائق الروضة، وأهدى الباشا خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجوادا مطهما سرجه مرصع بالجواهر وما شابه ذلك من نفائس، وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة.

وطيلة هذه الأيام الثلاثة ولياليها أقام البكوات المأدب للباشا وقدموا إليه هداياهم ونالوا منه خلع السمور .

وفى ذلك اليوم عفر رئيس فرقة الانكشارية وجهه على حافر جواد الباشا ودعاه إلى مأدبة فى «أثر قدم النبى» ﷺ لأنه عند إدارتهم، ثم ركب الباشا سفينته وركب جميع الأمراء والأعيان وأعضاء الديوان وأصحاب الألقاب سفنهم تغمرهم البهجة والسرور وسبقوا سفينة الباشا وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ابتهاجا وأمر جميع البكوات موسيقييهم بالعزف وقرع الطبول حتى وصلوا بسفنهم إلى القياس فى ساعتين. وتناول الباشا الطعام فى مأدبة أغا الانكشارية وقدم إليه كيسا من الذهب وخمسة من الطواشية وخمس بنادق

مرصعة بالجواهر وجوادا مطـهما فخلع عليه الباشا كذلك خلعـة من فرو السمور. كما أهدى أغا الانكشارية لكل من كتخدا الباشـا ومن فى معيته ورئيس الديوان والخزينة دار والمهردار جوادا مطهما ثـم ركب الباشا سفينته وبسط شراعها وأطـلقت المدافع والبنادق تعبيرا عن البهجة والسرور.

ثم تناول الباشا طعامه فى مأدبة «الشهر حواله» وتلقى الباشا منه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية، كما منح كتخدا الباشا جوادا ونال خلعة من الباشا وتم له التثبيت فى منصبه.

وجملة القول أنه فى اليوم السابع لكى لا يـقعد الناس عن العمل ويرهقون بالإنفاق ركن بعض الوزراء إلى الراحة والمتعة كالملوك ثلاثة أيام بلياليها.

وفى اليوم الثالث ركب الوزراء سفنهم ومضت بهم بين التهليل والهتافات، ونزل أغا العزب بقاربه إلى قصر أم الـقياس ودعى الباشا والكتخدا إلى مأدبة عظيـمة يعجز عنها الوصـف، وبـعـد الفراغ مـن الطعام قـدم إليـه ثلاثـة أكيـاس وثلاثـة مـن الـطواشية وثلاثـة جياد، كما أهدى جوادا إلى كتخدا الباشا. وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

بعد ذلك ركب الباشـا وموكبه السفن وتم إعلان مظاهر البهـجة والسرور، كما أقام كتخدا الشاويشية مأدبة للباشا فى حـديقة رمضان بك وقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، فخلع عليه الباشا خلعة مزركشة وثبته فى منصبه.

وأقام رئيس فرقة المتفرقة خياما وسرادقـات فى جزيرة الروضة وأقام مأدبة للباشا فى ظلة فاخرة، وبـعد الفراغ من الطعام قدم إلى الـباشا ثلاثة أكياس وثلاثة مـن الطواشية وثلاثة من الجياد المطهمة. فطيب الباشا خاطره بخلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

ثم ركب الباشا زورقه وسط قرع الطبول وطلقات المدافع حتى بلغ قصر السبتية وعندما رسى زورقه أطلق جند الإسلام مدافعهم وبنادقهم من السفن ومن الخيام والسرادقات التى نصبت علـى جانبى النيل، وصدحـت الموسيقى وعمهم الـبشر والبهجة وكأنـهم شاهدوا خيال الظل. ثم تفرق الـناس ومضى بعضهم مع موكب الباشا إلى قصـر السبتية. وهناك حضر الـباشا وليمة أعـدها الروزنامجى أفـندى، الذى أهدى البـاشا ثلاثة من الطـواشية

وثلاثة جياد ومحبرة من الفضة الخالصة وبعض الكتب القيمة. فخلع عليه فروا فاخرا وثبته فى منصبه. وبعد الفراغ من هذه الوليمة خرج الباشا فى الموكب على صهوة فرسه وفى معيته جند الإسلام جريا على العادة القديمة ومضى الجند زرافات زرافات موجة بعد موجة مثنى مثنى منحازين جريا على عادتهم فى مظاهر الأبهة والعظمة.

ومر الباشا وعليه قلنسوته السليمية المزينة وعليه قباء من فرو السمور حاملا كنانته المرصعة واصطف الناس جميعا كبارا وصغارا رجالا ونساء شيوخا وشبابا على جانبى الطريق العام فى مدينة القاهرة لاستقباله، وعندما لوح الباشا لهم بالسلام ارتفعت أصوات النساء بالزغاريد ودعا له الكبار والصغار والشيوخ والشباب قائلين: «حفظك الله وسلمك يا عزيز مصر يا والى مصر يا وكيل السلطان»، وما إلى ذلك من شتى الألقاب. ثم جاء رئيس سقائى قافلة الباشا ومساعدوه يحمل كل منهم كيسا من المال ونثروا ما بها من مال على الفقراء الذين اصطفوا يدعون للباشا بكل خير ونال كل منهم نصيبه. آية: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧، الأنعام: ٩١]. واصطف كذلك صبيان المدارس الابتدائية على الطريق العام أثناء مرور الباشا وهتفوا بقولهم: « الله ينصر السلطان» ونال كل منهم كذلك من عطاء الباشا.

وعلى هذا النحو السابق عندما دخل الباشا من باب العزب وزع عطاياه على البوابين وعندما وصل من القلعة إلى قصره أطلقت سبعون أو ثمانون طلقة من القلعة وأقيم سماط فى قاعة ديوان الغورى دعى إليه جند الإسلام جميعا.

ويبلغ عدد المآدب التى تقام طوال سبعة أيام وليال بمناسبة الاحتفال بقطع النيل سبعين مأدبة.

هذا هو قطع النيل بمآدبه ومواكبه واحتفالاته ذكرتها على حد وقوفى على أمورها.

وتكثر الهدايا المقدمة للباشا بمناسبة قطع النيل، وهذا ما سأذكره فى حديثى عن قوانين التشريفات فى مصر.

غير أنه فى عهد «جان بولاد زاده حسين باشا» تدهورت أوضاع مصر وساءت أحوالها إلى حد جد بعيد، ولم يحتفل بقطع النيل ومع ذلك قدموا له الهدايا وإن

قلت ذلك لأن مـصر قد أفلست فى عـهد الكتخدا إبراهيـم باشا؛ ولذلك لم يحـتفلوا بقطع النيل.

ومنذ القوانين القديمة لسلاطين السلف كان يـحتفل باثنى عشر عيدا منها عيد «قطع النيل» وقد اشتهر هـذا الاحتفال على لسان مؤرخى العالم من الـترك والعرب والعجم. وكم من آلاف الشعراء والبلغاء قرضوا فيه الشعر. فما كان لهذا الاحتفال من نظير على وجه الأرض.

***